أين نحن؟

الانقسامات في المعسكر الاشتراكي وابتعاد بعض الأطراف عن واقع الحياة

-1- ثورة أكتوبر بدء تحول في الاتحاد السوفياتي... وبدء تحول في العالم كله.. إلا أن علينا التمييز بين هذه الثورة كبدء مرحلة انتقالية عالمية.. وبين اللحظة التي تسود فيها قوانين النظام الاشتراكي عالمياً

يشتد الجدل وتكثر التساؤلات حول العديد من القضايا في هذه الأيام بين صفوف الاشتراكيين فهل هذا يعود إلى أن الواقع متناقض ويمكن أن تختلف النظرة إليه باختلاف الموقع منه؟ قد يكون ذلك صحيحاً، إلا أنه لن يبلغ الجدل في شدته إلى درجة الانقطاع فالعداء بين الاشتراكيين المتسلحين جميعاً بالدياليكتيك بسبب اختلاف موقعهم من الواقع. وعندما يقع مثل هذا الانقطاع، كما هي الحال في أيامنا هذه بين الحزبين الشيوعيين الكبيرين: الحزب الشيوعي السوفياتي والحزب الشيوعي الصيني فإنه يشكل ظاهرة تدلنا على أننا ابتعدنا عن الواقع بتغيراته وانقلاباته.

ومن المفيد لنا أن نحاول تعيين موقعنا التاريخي قبل الدخول في جدل حول أية مسألة. فمن المعلوم لدى الاشتراكيين العلميين على الأقل أن المجتمع الإنساني ككل الكائنات المادية يمر من طور إلى طور خلال مرحلة انتقال وضمن ظروف مناسبة. وأن الدافع البارز للانقلابات الكيفية للمجتمع هو العمل الإنساني مع مختلف النشاطات الإنسانية الأخرى التي من جملتها مختلف أشكال النضال السلمي والمسلح. ثم إن سلسلة الرأسمالية قد انقطعت بثورة أكتوبر من أضعف حلقاتها فبدأت مرحلة الانتقال العالمي من طور الرأسمالية إلى طور الاشتراكية. فهل انتهت هذه المرحلة يا ترى أم أننا ما زلنا نقع فيها؟ وقد يبدو هذا السؤال ساذجاً ويبدو أننا نمر الآن في مرحلة الانتقال العالمية من الرأسمالية إلى الاشتراكية، بل أنه ليس هنالك من بيان تقريباً تصدره جهة اشتراكية علمية مسؤولة إلا وهو مزين بعبارة "... في هذه الظروف التي تمر بها الإنسانية من الرأسمالية إلى الاشتراكية.." أو ".. في هذه الظروف التي تمر بها الإنسانية من الرأسمالية إلى الاشتراكية.." أو بما شابه. إلا أننا نجد أن هذه الجهات الاشتراكية المسؤولة منه أن الاشتراكية قد تم الوصول إليها في هذا البلد أو ذاك بتمام أبعادها وخواصها. اننا نجد مثلاً في كتاب المادية التاريخية من تأليف السوفياتيين: كيللي وكوفالزوف، وفي الصفحة 180 من النسخة المترجمة إلى اللغة العربية والصادرة حديثاً عن دار الجماهير في دمشق مايلي:

".. فإذا كانت الإقطاعية قد سادت أوربا زهاء 500 سنة، وإذا كان انتصار الرأسمالية عليها شغل 300 سنة، فإن بناء الاشتراكية في بلادنا قد تم في أقل من 20 عاماً، وخلال الثلاثين عاماً الأولى بعد ثورة أكتوبر ظهر المعسكر الاشتراكي الجبار"

فالكاتبان كيللي وكوفالزوف يقارنان تشكيلة اجتماعية قامت في بلد واحد هو الاتحاد السوفياتي الـذي أعلـن قيام الاشتراكية فيه عام 1936 في نهاية الخطة الخمسية الثانية، نقول يقارنان هذه التشكيلة بطـور عـالمي كامل هو الطور الرأسمالي الذي بدأ برأيهما في القرن السادس عشر والذي نعلم أنه ساد العالم كلـه خـلال القرون الثلاثة المشار إليها في الكلمة الأنفة الذكر فأصبح عالمياً. ونضرب صفحاً عـن مقارنـة التـشكيلة السوفياتية بالطور الإقطاعي الذي ساد أوروبا زهاء خمسة قرون بحسب رأي الكاتبين. ثم إننـا نجـد فـي الصفحة 182 من ذات الكتاب المشار إليه أنفا مايلي:

"إن ثورة أكتوبر العظمى والثورات وأسيا فتحت الطريق لثلث الإنسانية إلى الاشـتراكية والـشيوعية. وإن ظهور النظام الاشتراكي العالمي وقيام الدول ذات العلاقات الإنتاجية الاشتراكية في بلدان هذا النظام ونشوء العلاقات الدولية الجديدة بين البلدان الاشتراكية – إن هذا لهو عملية ظهور التشكيلة الاجتماعية الـشيوعية. ونتيجة للانتصارات العالمية التاريخية التي أحرزتها شعوب بلدان المعسكر الاشتراكي تـم القـضاء علـى الإمكانيات الاجتماعية الاقتصادية لعودة الرأسمالية، وصار النظام في الاشتراكي العامل الحاسم في عمليـة التطور الاجتماعي.."

وهنا لا نجد أي اثر أو أية إشارة لمرحلة الانتقال العالمية من الساعة التي قامت فيها ثـورة أكتـوبر حتـى الوصول إلى الشيوعية، بل يمكننا أن نفهم منها أن مرحلة الانتقال العالمية هذه قد انتهـت بقيـام المعـسكر الاشتراكي: - إن هذا لهو عملية ظهور التشكيلة الاجتماعية الشيوعية ... حسب تعبير الكاتبين اللذين يتبعان كلمتهما السابقة بالعبارة التالية: "وكما برهنت الماركسية اللينينية فإن المجتمع الاشتراكي – المرحلة الأولـى من التشكيلة الاجتماعية الشيوعية – سوف يتطور إلى الشيوعية الكاملة، إلى المرحلة العليا.."

وللخروج من هذه الدائرة المغلقة يجدر بنا أن نميز بين الخط العام لتاريخ الإنسانية والخط التاريخي الخاص لكل شعب من شعوبها. فهنالك التقدم العام للإنسانية الذي يصل بهذه في كل طور تاريخي إلى سوية ماديـة معينة. كما أن هنالك التقدم الخاص للإنسانية الذي يصل بهذه في كل طور تاريخي إلى سوية مادية معينـة. كما أن هنالك التقدم الخاص والسوية الخاصة لكل شعب من الشعوب في كل طور من الأطـوار. فنجـد أن بعض الشعوب تبلغ شأوا رفيعاً من الرقي المادي والفكري في الوقت الذي تبقى فيه شعوب أخرى متخلفـة عن هذا الشأو، بل ان الكثير منها يكون في ذات الطور العالمي تائهاً في دياجير الفاقة والظلام. إلا أننـا لا ننسى هنا الملاحظتين التاليتين:

أولاً: إن الأطوار التاريخية لكل المجتمعات الإنسانية لا تختلف عن بعضها البعض لا مـن حيـث صـفاتها الأساسية ولا من حيث تتاليها. فلن يبدأ مجتمع من المجتمعات مثلاً تاريخه بالرأسمالية ليصل إلى الإقطاع أو إلى غيره بينما يتبع مجتمع آخر ترتيباً أخر في سيره التاريخي. كما أنه ليست هنالك أطوار تاريخية تخـص

مجتمعاً من المجتمعات ولا تخص غيره، ليست هنالك مثلاً أطوار غير التي عددتها الماركسية من المشاعات البدائية حتى الشيوعية.

ثانياً: من المعلوم أن الإنسان سار بمجتمعاته منذ زمن بعيد نحو تشكيل جملة مادية كبيرة إنسانية موحدة بتفاعلاتها وتناقضاتها الاجتماعية. وكانت ومازالت التراكمات المادية في كل العهود الاستغلالية. من العبودية إلى الرأسمالية، تظهر بنتيجة مساهمة عدد من الشعوب بإنتاج الفائض اللازم لهذه التراكمات، وليس بنتيجة مساهمة شعب واحد فقط وهذا بسبب مختلف العلاقات التي يمكن أن تقوم بين مختلف المجتمعات: خضوع عدد من الشعوب الإمبراطورية واحدة: عبودية أو إقطاعية أو رأسمالية، العلاقات التجارية بين مختلف أقطار العالم وبين مختلف إمبراطورياته الاستغلالية الخ.. ونلاحظ أن سريان القيم المادية يتجه دوما من المجتمعات المتخلفة إلى المجتمعات المتقدمة في كل العهود الاستغلالية، وكأن القيم كإليكترون التيار الكهربائي يمر دوماً من القطب السالب إلى القطب الموجب أو من الطاقة المنخفضة إلى الطاقة المرتفعة!.. ويشتد تماسك المجتمعات الإنسانية وتشتد التفاعلات المتقابلة لهذه المجتمعات بتطور وسائل الاتصال وتطور التكنيك بصورة عامة. وقد بلغت تلك الجملة الإنسانية الآنفة الذكر درجة عالية من الكمال والتماسك بقيام الإمبراطوريات الرأسمالية العالمية بعد أن تمت الاكتشافات الجغرافية الكبرى بحيث لم يعد بالإمكان في أيامنا هذه تصور دولة أو شعب أو أي جزء متطور نسبياً من الإنسانية يخرج عن هذه الجملة ليعيش منعزلاً عن بقية الشعوب اللهم إلا بعض القبائل البدائية التي تعيش في بعض أصقاع الأرض والتي تشذ عن هذه القاعدة فتؤيدها.

فمما تقدم يتضح لنا أن في مثل الجملة الإنسانية المار ذكرها لا بد من أن يسود اقتصاد عالمي واحد في كل طور تاريخي مستقر بحيث تعمل كل التشكيلات الاجتماعية في العالم على اختلاف درجة تطورها وهي خاضعة للخط العام الذي تفرضه قوانين هذا الاقتصاد الذي يكون سائداً في أكثر المجتمعات تقدماً مادياً. ونقصد بالطور المستقر كل طور من الأطوار التي يمر بها المجتمع الإنساني عدا فترات الانتقال بين هذه الأطوار: الطوران الرأسمالي والاشتراكي مثلاً هما طوران مستقران، بينما فترة الانتقال بينهما هي فترة غير مستقرة تفقد فيها الجملة الإنسانية توازنها. فنجد مثلاً أن المجتمعات الإنسانية العبودية والإقطاعية والبرجوازية المتقدمة المتخلفة في المستعمرات وشبه المستعمرات مع المجتمعات البرجوازية المتقدمة في أوروبا وأميركا، كل هذه المجتمعات كانت تعمل ضمن خط عام فرضه النظام الرأسمالي في طور الرأسمالية التي كانت تستغل كل العالم قبل ثورة أكتوبر الكبرى. ويتضح لنا هنا أن التشكيلة الاجتماعية المتخلفة لمجتمع ما في الجملة الإنسانية لا يمكن أن تأخذ كل أبعادها وصفاتها المادية عندما تكون خاضعة لاقتصاد متقدم سائد في العالم: إن التشكيلة الإقطاعية مثلاً في مستعمرة من المستعمرات تختلف عما كانت عليه في بلاد هذه المستعمرة ذاتها قبل أن يقع هذا البلد في قبضة المستعمرين الرأسماليين وذلك لسبب بديهي وهو أن القيم التي كان ينتجها النظام الإقطاعي للبلد المذكور قبل الاستعمار ما كانت لتدخل بمعظمها في دورة رأس المال على شكل قيم زائدة لصالح خزائن المستعمرين في بلد بعيد هو أوروبا أو أمريكا بل كانت هذه القيم

برمتها تشكل أساساً تقوم عليه إقطاعيات الإقطاعيين هناك. فالإنتاج الإقطاعي في المستعمرات الرأسمالية يشكل فرعاً من فروع الإنتاج في الاقتصاد العالمي الرأسمالي، وفرعا في غاية الأهمية على تأخر وسائله، إنه هو الذي يمد معامل الرأسماليين بمعظم موادها الأولية، بينما كان الإقطاع في القرون الوسطى هو الأصل وله كل أبعاده المحددة بعلوم الاجتماع.

وإن التراكم المادي هو الأساس لتطوير وسائل الإنتاج ولا سبيل أبداً للارتقاء بأساليب الإنتاج وبالتالي إلى الارتقاء من عهد تاريخي إلى عهد أعلى بدون تحقيق هذا التراكم الذي هو محرك التقدم. فالإنسان بقي أكثر من ثلاثمائة قرن في المشاعات البدائية عندما لم يكن هنالك تراكم مادي، إلا أنه تمكن من اجتياز مرحلة العبودية بأقل من أربعين قرناً عندما توفر له التراكم، ومن اجتياز مرحلتي الإقطاع والرأسمالية بأقل من عشرة قرون عندما تحسنت وسائله فتمكن من توفير ثروات طائلة لتحقيق التراكم المادي.

ولكن التجارب التاريخية بينت لنا أن تحقيق التراكم لم يكن أبداً بنتيجة تنازل الناس تلقائياً عما يفيض عنهم من القيم بعد أن يستهلكوا حداً أدنى منها يكفي لبقائهم على قيد الحياة في سوية مادية مناسبة، بل كان بالقسر المتناسب عكسياً مع تقدم وسائل الإنتاج. كما أنه لم يظهر تراكم مادي كبير في جهة من جهات العالم طيلة عصور الاستغلال إلا وكان على حساب جهات أخرى من العالم. لذلك كان النمو الاقتصادي والسياسي غير المتساوي قانوناً عاماً لجميع أطوار الاستغلال العالمية، سيما منها الطور الرأسمالي، فهو "قانون المطلق"[1] فلكي يحدث التراكم وما ينشأ عنه من تقدم مادي في جهة ما من مجتمع ما، أو في مجتمع أو عدد من المجتمعات، فإن تراكماً سلبياً يحدث في الجهات الأخرى من الجملة الإنسانية فيحدث التأخير بهذه النسبة أو تلك في هذه الجهة أو تلك من المجتمع أو من الكرة الأرضية بقدر ما يسلب هناك من القيم على مر السنين وبقدر ما يلجم الشعب هناك لتسهيل عمليات السلب والاغتصاب.

ونجم بسبب النمو غير المتساوي في الجملة الإنسانية أن مرحلة الانتقال العالمية بين طورين، الطور الرأسمالي العالمي والطور الاشتراكي العالمي، تكتسب كل هذه التناقضات الحادة في كل النشاطات الاجتماعية في كل مجتمع وبين كل المجتمعات، فهي الشكل الأعلى لغليان المادة. ذلك لأنه لو كانت كل المجتمعات بدرجة واحدة من النمو وبسوية مادية واحدة وتحدث في كل منها تراكمات مادية لا تختلف عن تلك التي تحدث في الأخرى لأصبحت الجملة الإنسانية أشبه شيء بتلك الكائنات المادية التي ندعوها في علم الطبيعة بالأجسام غير البلورية والتي لا يتبين لنا في شكلها عند انتقالها من حالة إلى حالة كل تلك الخطوط الحادة التي تفصل بين الحالتين كما هي الحال في الأجسام البلورية: نجد الجسم الصلب غير البلوري مثلاً يتراخى شيئاً فشيئاً تحت تأثير الحرارة مع الارتفاع المتسمر في درجة حرارته وهكذا إلى أن يبلغ حالة السيولة، الأمر الذي يختلف في الأجسام البلورية التي تشكل الغالبية الساحقة للمادة والتي عند ذوبانه تحتفظ بدرجة حرارة ثابتة وتنتقل جزءاً جزءاً من الصلابة إلى السيولة رأساً دون المرور بحالة التراخي، وهكذا

[1] - الكلمة للنين.

يمكننا أن نشاهد الصلب والسائل معاً في هذه الأجسام المادية الآخذة في الذوبان، أي المـارة فـي مرحلـة الانتقال من حالة الصلابة إلى حالة السيولة أو العكس. وبعد أفلا نشاهد اليوم بكل وضـوح تلـك الخطـوط الحادة الفاصلة ما بين العالمين، الرأسمالي والاشتراكي، في الجملة المادية الإنسانية في الوقت الذي حـدثت وتحدث فيه تلك الثورات المتتالية والمختلفة المؤدية إلى تغيير علاقات الإنتاج من علاقات رأسـمالية إلـى علاقات اشتراكية، الأمر الذي يدل بوضوح تام على أن هذه الجملة الإنسانية كائن مادي يتبـع فـي تحولـه قوانين تحول الأجسام البلورية ولكن بشكل عال ومعقد جداً؟ نعم أننا نشاهد هذا بوضوح في واقعنا، ولكننـا بكل أسف لا نشاهده بذات الوضوح في كتابات الكثيرين من التقدميين والاشتراكيين، الكتابات التـي تختفـي منها كل الخطوط الحادة ما بين عالمي الرجعية والتقدم، بينما تظهر فيها بوضوح كل تناقضات عالم التقـدم. وبإمعان النظر نرى أن التحولات الجزئية في الجملة الإنسانية العالمية في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ما هي إلا أجزاء من الحركة العامة للتحول في هذه الجملة. فثورة أكتوبر مثلاً هي بدء تحول في الاتحاد السوفياتي في الوقت الذي هي فيه بدء تحول في العالم كله. أي أن هذه الثورة فتحت مرحلة الانتقال العالمية من الرأسمالية العالمية إلى الاشتراكية العالمية. إلا أن علينا أن نميز بين هذه الثورة التي هـي بـدء مرحلة انتقال عالمية، وبين اللحظة التي تسود فيها قوانين النظام الاشتراكي على كل نظام يمكن أن يوجد في العالم سيادة مطلقة، أي اللحظة التي يمكن أن نجزم فيها بأن النظام الرأسمالي فقد نهائياً قدرته على شن كـل حرب تهدد الإنسانية بحضارتها، اللحظة التي هي بدء مرحلة الاشتراكية العالمية. الأمر الـذي لـم يفعلـه الكاتبان السوفياتيان كيللي وكوفالزوف، في الكلمة التي أوردناها فيما سبق والتي نجد فيها أن ثورة أكتـوبر هي المنطلق إلى المرحلة العليا من الشيوعية, طبعاً إن اعتراضنا هذا على الكاتبين المذكورين لن يكون أشد منه عندما نعترض على شخص آخر يقول بآن مولد آدم عليه السلام هو أيضاً المنطلق إلى المرحلة العليـا من الشيوعية، ذلك لأن التاريخ وان تقسم إلى أطوار مختلفة كل الاختلاف يبقـى متـصلاً بأسـبابه علـى العموم!..

وكذلك يمكننا القول بأن كل تحول من التحولات الاشتراكية التي ظهرت بعد ثورة أكتوبر في أوروبا وأسـيا وأميركا هو تحول في كل بلد من هذه البلاد الاشتراكية وهو في ذات الوقت جزء من عملية تحول العـالم إلى النظام الاشتراكي العالمي. وبسبب النمو غير المتساوي للمجتمعات الإنسانية وبسبب اختلاف ظروف كل مجتمع واختلاف صفاته ومزاياه عن ظروف ومزايا المجتمعات الأخرى نجد أن حركة كل مجتمع من هـذه المجتمعات للانتقال من القديم إلى الجديد، من الرأسمالية إلى الاشتراكية، في فترة الانتقال العامـة، تختلـف وتتباين على حسب الظروف عن حركات المجتمعات الأخرى. وقد يصل الاختلاف والتباين إلى درجة حادة يظهر معها التناقض الحاد في الحركة العامة للتقدم. وفي هذه الحالة قد يصل التناقض في حركة التقدم إلـى درجة العداء عندما تبتعد الأطراف المتناقضة، أو بعضها على الأقل، عن واقع الحياة، الأمر الذي نـشاهده بجلاء ووضوح في الانقسامات الراهنة للمعسكر الاشتراكي وبين جميع قوى التقدم الأخرى في العالم. إلا أن الذي يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو شدة تنوع الحركات الجزئية لحركة التحول العامة الراهنة الأمـر الـذي

ينشأ عنه الاختلاف الكيفي الكلي بالإضافة إلى الاختلاف الكمي بين الحركة العامة وكل حركة جزئية. فالكل يتضمن الجزء وأجزاء أخرى مخالفة في صفاتها للجزء. والجزء لا يتضمن كل تنوعات الأجزاء الأخـرى. ثم ان الحركة العامة للتقدم في مرحلة الانتقال العامة لا تتضمن فقط الثورات الاشتراكية ومراحـل الانتقـال الجزئية والبناء الاشتراكي في المجتمعات التي قامت فيها الثورات الاشتراكية، بل يتضمن أيضاً كل الثورات الوطنية والديمقراطية ضد الاستعمار والاستغلال في كل قطر من أقطار العالم مع كل التطـورات الفكريـة والمادية في حقل التكنيك وكل الحقول الإنسانية الأخرى, فلا تعارض ولا انفصام بين مختلف هذه الحركات، وعلى الأخص بين الحركات الوطنية مثلاً في العالم الثالث وبين الثورات الاشتراكية والبناء الاشتراكي وبين كفاح العمال ضد الرأسماليين في البلاد الرأسمالية، فكل هذه الحركات تصب في التيار الكبير العـام، تيـار التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية. وعلينا أن ننتبه إلى الأمر البالغ الخطورة، وهو ا، كل حركة تقدميـة من الحركات التي أشرنا إليها هنا تساعد على الانقلاب الكيفي أكثر مما تزيد في التراكم بـسبب الخـواص الثورية لمرحلة الانتقال، الأمر الذي يختلف في مرحلة مستقرة كالمرحلة الرأسمالية مـثلاً، حيـث تـؤدي حركات التراكم الذي يوصلنا عندما يبلغ حداً معيناً إلى النقطة الهجلية، إلى نقطة بدء التحول الكيفي. فـالأمر هنا يشبه كثيراً ما يحدث عند ذوبان المادة الصلبة، فكل حرور نعطيه لهذه المادة قبل مرحلة الانتقال يفيد في التراكم الحراري حتى نصل إلى نقطة الذوبان، إلى بدء مرحلة الانتقال، وعندئذ نجد أن كل حرور نعطيـه يفيدنا في تحول جزء من المادة من حالة الصلابة إلى حالة السيولة. وهكذا حتى تنتهي هذه المرحلة. ومـن هنا تتضح لنا الأهمية القصوى لكل حركة من حركات التقدم الراهنة، مهما كان نوعها وأنى موضعها مـن الجملة المادية الإنسانية، في الضرب على سلسلة الاستعمار.

ولو أن التحول يحدث بشكل واحد في كل المجتمعات، وهذا أمر غير واقعي، لما اختلف الخط العام للتحـول كيفياً عن الخطوط الجزئية ولكان الأول تكراراً بعدد من المرات لأحد الخطوط الجزئية.

ان كثرة التنوعات، التنوعات في جملة المجتمعات الإنسانية، وتناقض هذه المجتمعات وتفاعلها وتـصادمها، كل هذا يعزز من جهة واحدة الجملة المادية الإنسانية: إذ من الواضح أن لا تناقض ولا تفاعل ولا اصـطدام بين كائنين لا علاقة لأحدهما بالأخر. ومن جهة أخرى لا بد لكل هذا من أن يترك أثاره المتقابلة على كـل جزء من أجزاء الجملة الأنفة الذكر، الآثار المتعددة بعدد التنوعات الجزئية والعميقة بمقدار شدة التناقضات. وفي النتيجة لا تكون العوامل الداخلية في الجزء هي المسؤولة الوحيدة عن الشكل الذي يتطور فيـه هـذا الجزء. فالاتحاد السوفياتي مثلاً بعد أن اجتاز مرحلة الانتقال الجزئية الخاصة بـه وبعـد أن أقـام النظـام الاشتراكي في بلاده لا بد من أن يؤثر ومن أن يتأثر بالعالم الخارجي فلا يمكن أن تسود فيه كـل القـوانين التي تعود إلى مجتمع اشتراكي تام النمو. إن الاتحاد السوفياتي بتأثير التهديـدات الرأسـمالية مـضطر لأن يصرف جزءاً كبيراً من قيمه وثرواته لإقامة أجهزة دفاعية متينة وموجهة ضد الأخطار الخارجيـة وإلـى دسائس المستعمرين الداخلية. الأمر الذي يمكن الاستغناء عنه لو أن النظام الاشتراكي يسود في كـل العـالم على كل الأنظمة الأخرى المتبقية من مخلفات الماضي. وعندئذ تتوفر في هذا البلد وفي كل بلـد اشـتراكي

آخر حجوم كبيرة من القيم تصرف لتطوير الاقتصاد المنتج ولرفع سوية الناس. وبالإضافة إلى ما سبق نجد أن البلاد الرأسمالية تتعامل حالياً مع البلاد الاشتراكية وتقيم معها علاقات ثقافية وغيرها بالإضافة إلى العلاقات الأخرى غير المنظورة، علاقات الاستعلامات مثلاً، وكل هذا لا بد من أن يترك أثاره في الجهتين، أثاراً غير تلك التي تتركها التفاعلات بين مجتمعات كلها اشتراكية.

وقد قلنا أن الجزء له خط حركة في التقدم يشكل جزءاً من الخط العام لتقدم كل المجتمعات الأخرى. وهذا لا يعني أن الخط العام هو مجرد مجموع تراكمي للأجزاء فيتأثر بها فقط دون أن يؤثر هو بدوره فيها. بل على العكس، ولا بد من أن ترتبط الأجزاء بالكل والكل بالأجزاء ارتباطاً دياليكتيكياً بحيث تكون نتيجة التأثيرات المتقابلة هذه ظهور حدود لنوعي الحركة، الجزئية والعامة، لا يمكن للجزء ولا للعام تعديها إلا بثمن أحداث انقلاب في الجملة الإنسانية. فالعلاقة بين كل جزء وبين الكل هي علاقة دياليكتيكية تقوم عليها وحدة الكائن المادي الذي هو هنا جملة المجتمعات الإنسانية: في الطور الرأسمالي مثلاً رأينا أن الإقطاع في المستعمرات يتقيد بالخط العام للرأسمالية فلا يمكن أن يزدهر بكل أبعاده، بل أنه يخسر استقلاله ببلده ذاتها التي تصبح مستعمرة، وبالمقابل فإن التخلف في المستعمرات يثير الشعوب التي لا بد لها من أن تهب لمكافحة المستعمرين، وفي النتيجة لا تجري الأمور بشكل مطلق حسب رغبات هؤلاء. ثم أنه عندما اندلعت ثورة أكتوبر في روسيا القيصرية وقامت هنالك علاقات جديدة للإنتاج، علاقات تتعدى الحدود المفروضة من جهة الخط العام الرأسمالي العالمي، نقول أنه عندما اندلعت ثورة أكتوبر انقطع هذا الخط العام وانقلب كل الطور الرأسمالي إلى طور آخر هو مرحلة الانتقال العالمية من الرأسمالية إلى الاشتراكية، المرحلة التي تنتظم فيها شيئاً فشيئاً سلسلة جديدة هي سلسلة النظام الاشتراكي العالمي، فكانت إذن ثورة أكتوبر الظاهرة المادية إمكانية بدء تجاوز الحدود من قبل الأجزاء، من قبل كل المجتمعات في الجملة العالمية، الحدود التي أشرنا إليها أنفاً والتي قلنا أنها تظهر بنتيجة التفاعلات المتقابلة بين الأجزاء والكل، أي الحدود التي أقامها النظام الرأسمالي العالمي بكل تفاصيله وفروعه من أوروبا إلى المستعمرات. وبعد فإنه يتضح لنا بجلاء أن الاشتراكيات التي تظهر واحدة أثر أخرى في مجتمعات فترة الانتقال لا يمكن أن تكون لها جميع صفات وأبعاد الاشتراكيات التي تقع في طور أخر غير الطور الانتقالي، التي تقع في المرحلة السفلى للطور الشيوعي. فإذا كان هنالك بعض النواقص والأخطاء، بل العيوب في مجتمع اشتراكي حالي فإن ذلك أمر طبيعي لا بد منه. بل ان هذه العيوب وهذه التناقضات ستستمر وستنتقل إلى الطور المقبل في مرحلته السفلى، وقد قال ماركس في كتابه الذي ينتقد فيه برنامج غوتا إلى براكه، الكتاب المؤرخ في 5 مايس عام 1875: ".. لكن كل هذه العيوب لا يمكن تحاشيها في الطور الأول من المجتمع الشيوعي وهو في الحالة التي خرج بها من المجتمع الرأسمالي بعد مخاض طويل مؤلم. فالحقوق لا يمكن أن تكون أبداً أعلى من الحالة الاقتصادية ومن درجة التمدن الاجتماعي الراهنين.."

فالاشتراكيات في مرحلة الانتقال تؤلف عالماً هو بمثابة الجنين بالنسبة للاشتراكية العالمية التي ستقع في نهاية مرحلتنا الراهنة، وبالتالي فإن كل واحدة منها لا بد وأن تكون محدودة بأبعادها بالخط العام لهذه

المرحلة التي ستبقى قائمة مادامت الرأسمالية وكل أنواع الرجعية لفترة من الزمن قوى يحـسب لهـا ألـف حساب. إن جملة الجليد الذائب التي تتكون من خليط من الجليد والماء هي الجملة التي تمر بفترة انتقال مـن حالة الصلابة إلى حالة السيولة. وفي هذه الفترة نجد السيولة في الماء إلى جانب الصلابة في الجليـد، إلا أن الماء السائل لا يكتسب كل صفاته الفيزيائية إلا بعد أن تتم مرحلة الانتقال، إلا بعد أن يتم ذوبان الجليد، فـلا ترتفع درجة حرارته بتسخينه مادام بتماس مع الجليد وبالتالي لا يتغير حجمه عندئذ إلا بتغيـر كتلتـه مـن جراء ازدياد الكتل الذائبة من الجليد، الأمر الذي يختلف في الحالات الأخرى المستقرة حيث ترتفـع درجـة الحرارة بالتسخين ويتغير الحجم بدون أن تتغير الكتلة. ذلك لأنه في هذه الحالة نجد أن كل حـرور نعطيـه لحمو الماء – جليد يذهب إلى الجليد لإذابة جزء منه، فلا يمكن لهذا الحرور أن يثبت في السائل ليرفع مـن حرارته ما دام هنالك جليد بحرارة منخفضة هي الصفر. فالبلاد الاشتراكية لا يمكن أن تأخذ جميع صـفات وأبعاد الاشتراكية السائدة في العالم، اذ يبقى عندئذ هنا وهناك بعض المجتمعات الرجعية الضعيفة بالنسبة إلى المجتمعات الاشتراكية. ثم انه كم من القيم، كم من الحرور، المنتج بكل حركات التقدم من كل نوع من ساحة المعمل والمخبر إلى كل ساحات النضال والكفاح، يتحول في فترة الانتقال الراهنة من ساحات رفع صـروح البنيان المادي والفكري إلى ساحات إذابة الرجعية إلى ساحات رد خطر زحف الرجعية من كل نوع وفي كل نوع وفي كل مكان من الأرض؟..

وإذا كان بإمكاننا أن نفصل بسهولة الماء المتكون حول الجليد في جملة الماء – جليد الأنفة الذكر فنجعل من هذه الجملة جملتين لا علاقة لأحداهما بالأخرى. وإذا كان بإمكاننا عندئذ أن نسخن الماء فيتنـاقص حجمـه حتى درجة (+4) سنتغراد ثم يأخذ هذا الحجم بالازدياد مع ارتفاع درجة حرارتـه المـضطرد باسـتمرار التسخين، فإنه ليس بإمكاننا أن نفصل مجتمعاً اشتراكياً، أو عدداً من المجتمعات الاشتراكية، عن بقية جملـة المجتمعات الإنسانية لتجعل من الجملة المادية الإنسانية جملتين لا علاقة لإحداهما بالأخرى. وبالتالي لـيس بالإمكان أن يأخذ أي مجتمع اشتراكي راهن كل أبعاد الاشتراكية ما لم نضع هذا المجتمع على كوكب آخـر غير الأرض لنوفر عليه كل تلك الأعباء من القيم التي يصرفها في غير ساحات البناء ما دام ملامساً لعـالم رأسمالي استعماري قوي. إلا أنه يجدر بنا أن نقول أنه إذا كان العالم الاشتراكي الحال الـذي هـو بمثابـة الجنين بالنسبة إلى عالم ما بعد فترة الانتقال قد حقق العجائب التكنيكية وسيحقق المزيد منها، فإن مـن حـق الإنسانية أن تنتظر ما يتعدى كل خيال حالي من عجائب العالم المقبل، عالم الاشتراكية المنتصرة في العـالم كله. ولنعط الآن الملاحظة التالية ما تستحقه من اهتمام فنقول: نحن نعلـم أن الاشـتراكية هـي بـالتعريف المرحلة السفلى من طور تاريخي محدد، وهو طور الشيوعية، فهل بإمكان بلد اشتراكي أن يبني الـشيوعية العليا في مرحلة الانتقال؟ من الواضح أن لا. ذلك لأننا قلنا إن الاشتراكية في بلد لا يمكـن أن تأخـذ كـل أبعادها في مرحلة الانتقال الراهنة، فمن البديهي أن لا تأتي المرحلة العليا وهي الشيوعية قبل الانتهاء مـن بناء الاشتراكية العالمية. ولعل من يقول أن حرق المراحل ممكن ومثاله أن الثورة الاشتراكية وقعـت فـي بعض البلدان المتخلفة قبل أن ينضج فيها النظام الرأسمالي، بل أن منغوليا انتقلت من البداوة إلى الاشتراكية

رأساً. إن هذا يبدو في الظاهر صحيحاً، إلا أننا عندما ننظر إلى المسألة عن قرب نجد بوضوح أنـه لـيس هنالك أية مرحلة تحرق. ذلك لأن هذا البلد عندما مر من البداوة إلى الاشتراكية كانت هذه الأخيرة موجـودة في العالم، وكان العالم في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية العالمية حيث تنفرط سلسلة الرأسمالية حلقـة بعـد حلقة. ومنغوليا هذه، مع غيرها من البلاد المتخلفة، كانت على بداوتها حلقة في هذه السلسلة المعقدة، ولكـي تنفصل عنها في مرحلة الانتقال لا بد لها من أن تتصل بسلسلة الاشتراكية الآخذة فـي الانتظـام، أو أن لا تنفصل عن الرأسمالية إذا صدف وكانت ثورتها غير جذرية. إذ ليس هنالك من طريق ثالث لأننا قلنـا أن لا طوراً إنسانياً آخر غير الأطوار المعروفة: في أيامنا هذه إما أن يكون البلد رأسمالياً أو في مرحلـة انتقـال جزئية تخصه أو اشتراكياً، وعندما نقول رأسمالياً نقصد طبعاً أن هذا البلد في السلسلة الرأسمالية مهما كانت درجة تطوره. فلا نرى إذن أثراً لأية قفزة في الانفصال عن سلسلة الرأسمالية للاتصال بسلسلة الاشـتراكية في مرحلة الانتقال العالمية.

وإنه ما دامت هنالك رأسمالية يسجل اقتصادها تفوقاً في إنتاجيته على الاقتصاد الاشتراكي فـي كثيـر مـن الفروع الإنتاجية الهامة فإننا نبقى في مرحلة الانتقال العالمية الراهنة التي لا نرى فيها ظروفـاً موضـوعية تسمح "بحرق المراحل" أو بقفزات عبر اللاوجود. إلا أنه عندما يتحقق تفوق الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة الأمريكية مع تفوق الصين الشعبية وبقية دول العالم الاشتراكي على أوروبا الرأسمالية بالإنتاجية في العشرينات الأخيرة من هذا القرن فإن الأمر عندئذ سيختلف وستأذن عندئذ مرحلة الانتقال العالمية الراهنـة بالانتهاء. وعندئذ يمكننا أن نرى طلائع المرحلة الشيوعية العليا تطل على العالم من البلد الاشتراكي الأكثـر تقدماً، من الاتحاد السوفياتي حسب معطيات ظروفنا الحالية. وفي هذا التسلسل للتاريخ لا يوجد أثر لحـرق أية مرحلة، تماماً كما لا يوجد أي أثر لحرق المراحل عندما ينفصل بلد متخلف عن سلسلة الرأسمالية ليتصل بسلسلة الاشتراكية في مرحلة الانتقال من خلال انتقال جزئي يخصه.

وبعد، فلنعد إلى حيث بدأنا. فمن الخطأ الفادح أن لا نميز بين الاشتراكية في مرحلة الانتقـال والاشـتراكية السائدة في العالم بعد مرحلة الانتقال. والوقوع في هذا الخطأ الفادح يجر إلى سلسلة من الأخطاء لا تنتهـي. إنه يجر إلى عدم فهم مرحلتنا التاريخية الراهنة بجميع أبعادها. الأمر الذي يؤدي إلى عدم فهم الحـوادث التي تدور من حولنا وإلى عدم ربط هذه الحوادث بعضها إلى بعض وبالتـالي إلـى فقـدان الاسـتراتيجية الصحيحة للوقوف ضد الاستعمار الحديث.

ذلك لأن الخلط بين هاتين الاشتراكيتين يعني انفصال البلد الذي توهمنا إن الاشتراكية بلغت فيه درجة أخذت معها كل أبعادها عن جملة المجتمعات الإنسانية، وبالتالي إنكار تأثير الاستعمار الذي ما زال قوياً في مجتمع هذا البلد. ويؤدي هذا الأمر في آخر كل حساب إلى انفصام هذا البلد عن بقية قوى التقدم في العالم، ثم إلـى تمزق هذه القوى شذر مذر.

وإن مسألة إنهاء مرحلة الانتقال العالمية لا تقوم على "مباراة" سلمية بين نظامين يتطاولان الواحد أمام الآخر وكأن كلا منهما لا علاقة له بالآخر وكأنهما لا تضمهما جملة إنسانية واحدة فتربطهما إلى بعضهما البعض

ربطاً عضوياً مليئاً بكل تناقضات وتفاعلات أجزاء الكائن الواحد الحي. ذلك لأن الجملة الأنفة الذكر ضـيقة كماً وكيفاً ولا يمكن لجزء منها أن يترعرع دون أن يمس نقيضه من صميم كيانه. إنها جملة تمـر بمرحلـة انتقال فتسود فيها نظم متعادية يمسك الواحد منها بتلابيب الآخر بشكل بعيد جداً عن المسألة. ثم إن التكنيـك المتقدم في البلاد الرأسمالية الاستعمارية ليس ملكاً مكرساً للاستعماريين العدوانيين بطبيعتهم، إنه ملك العمال والفلاحين والمثقفين وكل الكادحين في هذه البلاد،بالإضافة إلى أن معظم قيم هذا التكتيك أتت وتأتي من بقية شعوب العالم نتيجة النهب والسلب اللذين مارسهما ويمارسهما المستعمرون، فيكون لكادحي هـذه الـشعوب حصة كبيرة من ملكية قيم هذا التكنيك ودين كبير على هذه البلاد المتقدمة. والنتيجة أن الكفاح العالمي بجميع جبهاته عندما يستهدف المستعمرين يستهدف أيضاً رد ما يغتصبه هؤلاء من وسائل جبـارة للإنتـاج إلـى أصحاب هذه الوسائل الحقيقيين. وبالتالي نرى ببساطة أن قيم هذا التكنيك التي بيد المستعمرين الآن هي ملك للإنسانية وللاشتراكية المقبلة. وعندئذ نجد أن لا معنى أبداً "لمباراة" سلمية بين تكنيكين راقيين عائدين كليهما حتماً إلى الإنسان الكادح مبدع التقدم ضد الرجعية له معنى فهو كفاح بكل الوسائل والطرق الممكنة والمؤاتية للظروف الموضوعية الراهنة لتخليص الإنسانية نهائياً من البربرة. إما إذا قصد "بالمباردة" السلمية البرهنـة على تفوق النظام الاشتراكي على النظام الرأسمالي من حيث فائدته في القيم من كل نوع. أما الذي له معنى رفع سوية الناس، فإننا لا نكون عندئذ قد أتينا بشيء جديد، لأن هذه البرهنة حاصلة منذ زمن بعيـد وبعيـد جداً، من اليوم الذي خرج فيه المستعمرون لشن غاراتهم على شعوب العالم قاطبـة ممعنـين فيهـا الـسلب والنهب والقتل بعشرات وعشرات الملايين.